

الاستهلاكية: هل تسبب مشكلة في تربية الأطفال؟

بقلم سمر شنودة



تختلف أنماط الاستهلاكية من عصر لآخر ومن بيئة لأخرى. كما أنها تتأثر بدخل الفرد مقارنة بالجماعة التي يعيش فيها. فسلوك فرد غني نسبياً في جماعة فقيرة تجعله يميل إلى امتلاك سلع رفاهية أكثر من مثيله في مجتمع معتدل. وظروف مجتمعاتنا العصرية تشجع النزعة الاستهلاكية، ويساهم في ذلك بقدر كبير تطور الإعلام التجاري، فيحصل الأطفال - مثلهم مثل البالغين - على معلومات عن السلع المتوفرة في السوق، مما يكسب الطفل استقلالية أكبر في الأشياء التي يريد أن يحصل عليها، وتضيف من قوته الشرائية حتى ولو بطريقة غير مباشرة.

هذا التغيير يضع أي شخص معني بالتربية، أمام عدة مفارقات، أي المواقف يفضل:

- استقلالية الطفل أم تبعيته لآراء البالغين؟
- اختيار ما هو ضروري أم بعض الرفاهيات؟ (وهذه الحالة من يحدد الفرق بين الاثنين: الطفل أم المربي)
- تأقلم الطفل على البيئة الثقافية التي ينمو داخلها أم تهميشه؟

هذه المفارقات تجعلني أعي بأن موقفى الشخصي من الاستهلاك - كمثل باقى الناس - غير محسوم، فهو يتطور بتطور كثير من أوضاع حياتى كوضعى الاجتماعى واحتياجاتى وأحياناً حالتى النفسىة... فقضية أن أكون أو أن أملك هى قضية وجودية قبل أن تكون اختيارات عملية!

إن موضوع الاستهلاك موضوع شائك ومثير للصراع سواء بالنسبة لنا كبالغين أو بالنسبة لأطفالنا، ولما مهرب من طرحه داخل أسرنا!

فبدلاً من الصراع مع المفارقات وتبنى أسلوب المنع، نستطيع أن نتبنى قيماً إيجابية فيكون موقفنا -بدلاً من أن نعارض على طول الخط- هو أن نعرض بدائل. وهذا المقال يعرض بعضاً من هذه البدائل.

□ □ □ □ □ □ □ □ تذوق الأشياء البسيطة:

مفهوم الفرغ والاستمتاع لا يرتبط فى ذهن الأطفال حتماً بالشراء والإنفاق. فهم يتذوقون أشياء عديدة بسيطة وصغيرة. وربما نستطيع فى أسلوب تربيته أن نبرز ونطور هذا البعد. فعلياً أن نتساءل أولاً عن مدى احترامنا لممتلكاتهم الصغيرة (أغطية اللزجاجات - المقواقع - الأوراق) ومشاركتهم الماندعاش أمام هذه الأشياء؟

يعرض علينا الإعلام التجارى صوراً لأمعة من التسلية والاحتفال قد نحتفظ ببعض مظاهرها. ولكن يحتاج الأطفال أيضاً إلى وجود "طقوس عائلية" تدخل البهجة وتخرج عن الروتين. فما هى طقوسنا العائلية فى الاحتفال؟ هل نهتم ببعض التفاصيل الصغيرة؟ وهل نشترك كعائلة فى تحديد هذه الطقوس ونعدها ونمارسها معاً؟ ما هى الأوقات المجانية التى ننعم فيها معاً كعائلة - كالمشاركة فى أعمال يدوية، أو سهرة لعب أو غناء، أو فيلم نشاهده معاً - أشياء أخرى عديدة يمكن أن نخرج من خلالها دون اللجوء إلى استهلاك من ذوع



من شيء ما، وجب الاستعداد له.

وينطبق هذا على أشياء أخرى عديدة: فليس كم الأكل على مائدتي، ولما الملابس في دولابي، ولما شرائط الموسيقى التي أمتلكها، أو عدد الكتب في مكتبتي هي التي تدخل البهجة إلي. بل الأسلوب الذي اتبعته لكي أستطيع أن أستفيد من كل هذا . فإذا كانت قد وضعت مثلاً الموسيقى في أولوياتي، أستطيع أن أوفر لها المساحة اللازمة في حياتي: وقت، ومكان، ونقود، حتى لو كان هذا على حساب شيء آخر! وهذا اختيار.

إن تربية الاختيار تتطلب ترتيباً، تفكيراً، النظر إلى الاحتياجات، تحديد الأولويات، اكتشاف أعمق للنفس. أي استهلاك موجه. إنها ليست دعوة لتعقيد الأمور بل على العكس إلى الاستمتاع أكثر بما هو متاح. والتربية على الاختيار تأتي بالممارسة اليومية في تفاصيل من الحياة اليومية: كم من الوقت للتلفزيون أو الكمبيوتر؟ متى وكَم من الأكل غير المغذي سأتناولها؟ من بين العديد من الإمكانيات المتاحة، تلفزيون مفتوح، راديو يغني، لعبة على الأرض، ماذا سأختار؟

إن الاستهلاكية موضوع عرض وطلب. يتعلم أطفالنا أن يتذوقوا الأشياء التي نستمتع بالقيام بها معهم. وإن لم نعرض لهم طرقاً أخرى للاستمتاع بما التي يعرضها عليهم الإعلام التجاري فسيجدون صعوبة في أن يتخلصوا من كل هذه الصور التي تلاحقهم. ولحسن الحظ، لسنا وحدنا في حياة أطفالنا، فهناك أنماط أخرى عديدة للحياة بوسعها أن تلهمهم. ولكن من أجل هذا علينا أن نوجه السؤال لأنفسنا أولاً: كيف نستمتع وبماذا؟ كيف يمكنني أن أشارك هذه المتعة مع عائلتي؟ وبالعكس، كيف يستمتع أطفالنا (كل واحد فيهم)؟ ألا يمكنني أن أكرس بعض الوقت لمشاركتهم هذه المتعة؟

نحن بالتأكيد ملاحقون كل يوم بكم من الضغوط التي تضطرنا للحلول العملية البرجماتية والقرارات المنفردة، فهذا يوفّر الجهد والوقت على المدى القصير. ولكن إن فكرنا في الاختلاف الذي ربما يحدث في حياة أطفالنا على المدى الأبعد سيعطينا هذا طاقة ودفعة جديدة.

إن الله هو مصدر حياتنا. وهو يعطينا قبل أن نسأله. فكيف نرجع في صلاتنا اليومية مع أطفالنا إلى ما عشناه: اليوم ما هي المنعم التي نلتها من الله؟ ماذا تذوقت اليوم؟ ماذا أحببت؟ يقول المسيح "أنتم ملح الأرض". فما هي الأشياء التي أضافت طعماً إلى حياتي اليوم: زيارة لأحد الأصدقاء؟ حمام دافئ؟ وقت مريح في حضان أبي؟ أكلة لذيذة؟ موقف الحمد والشكر أمام نعم الله يساعداً ويساعد أطفالنا على اكتشاف الأسباب الحقيقية لفرحنا وانطلاقنا.

أسئلة للتفكير:

هل الموضوع مطروح علىّ؟ كيف أعيشه؟

ما هي الأشياء التي أستمتع بها؟ مع من أشاركها؟ كيف؟